إنَّني آسف على ولادتي

عبد الستّار ناصر*

أَوْشكتْ حفيظة فارس أن تموتَ يومَ ولادتي. فات اليومُ الرابعُ بعد الشهورِ التسعة وأنا أرفضُ النزولَ نحو الدنيا، متمسِّكًا بتلك العتمةِ الرهيبةِ الطيِّبةِ الحنون. وفي اليوم الخامس اقترحَ الطبيبُ إجراءَ عمليَّةٍ قيصريَّةٍ حتى لا يموتَ الجنينُ في بطنِ أُمِّي. ولم يكن الطبيبُ يعرف بعدُ مَنْ أكون. لكنَّني ما إنْ سمعتُ لغةَ التهديدِ السافرةَ الوقحة ـ عمليَّة؟ و... قيصريَّة؟ ـ حتى قررتُ الهبوطَ من رَحِمِها. وكان ذلك في الثانية بعد منتصفِ ليلِ السابعِ من حزيران عام ١٩٤٧ حيث كانت بغدادُ يومها تُشوى على نارٍ هادئة.

فوجئتُ بالصمتِ حيالَ مجيئي صوبَ هذا العالم: لا أحدَ يكتبُ عن حضوري، وليس من بشريٍّ يعنيه أمري. ربما سمعتُ هلاهلَ خالتي منيرة، ورأيتُ خالتي الحسناء زينب تَرْقص ـ كم كانت مثيرةً وهي تَرْقص، ويا لَطولِها الشهوانيّ الباسق مثل نخلة.

شعرتُ بذلك فورًا ولم أكن غير يومٍ واحدٍ ملفوفٍ بخرقةٍ بيضاءَ يغنِّي حولَها أبناءُ محلّةِ الطاطران وهم يَنْقلون أخباري صوبَ أزقّةِ «باب الشيخ» و«عكد النصارى» وبقيةِ فروعِ الرصافة. وسوى ذلك لم يلتفتْ أحدٌ في الكرةِ الأرضيَّة إلى نزولي وموافقتي على أن أكونَ بين البشر. فأندريه جيدْ، الذي فاز بجائزةِ نوبل لتلك السنة، لم يبعثْ بسؤالٍ أو تهنئةٍ أو مباركةٍ بهذه الولادة، علمًا أنَّنا ـ كما تعرفون ـ لا نَبْعد كثيرًا عن باريس. وانتظرتُ العامَ التالي. قلتُ ربَّما يلتفتُ ت. س. إليوت إلى ولادتي ليحثَّ العالَمَ على تركِ مكانٍ يُحفَرُ فيه اسمي الذي سينال الجائزةَ في وقتِها المناسب. لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدثْ. وأهملني وليم فوكنر عام ١٩٤٩. كما عافني برتراند رَسِلْ سنة ١٩٥٠. وحتى إرنست همنغواي في عام ١٩٥٤، وعلى بساطةِ موهبته، لم يَلْتفت أبدًا إلى حضوري.

وفجأةً بعد ثلاث وخمسين سنةً، اكتشفتُ، ويا لَلْفاجعة، أنْ لا أحدَ يعرفُني أصلاً، ولا من مفكّرٍ أو شاعرٍ أو فيلسوفٍ أو ناقدٍ يهمُّهُ أمري. حتى الناشرُ الذي أُعطيه أعمالي ليطبعَها ينسى تركيبةَ اسمي في كلِّ مرةٍ يَطْبع فيها عملاً من شخابيطي، بل أَوْشَكَ مرةً أن يكتبَ اسمَ أبي قبل اسمي.

في اليوم الذي أيقنتُ فيه أنْ لا أحدَ يعرفُني وما من أحدٍ يهمُّه أمري، كان ذلك هو البدايةَ لهذا المؤلَّف المزعج. أصابني الجزعُ حقّاً حين مات توماس مان ويوسف إدريس وخوان رامون وأناتول فرانس. كنتُ أريدُهم منافسين لي، إذ ما جدوى الكتابة إذا لم يسمعْ بي جان پول سارتر وألبير كامو وطه حسين؟

لذلك لم أبدأْ معركةً مع الزمان والأسماء، بل خضتُ حربًا شعواءَ قلتُ إنَّها ستُحرقُ اليابسَ والأخضرَ. وتَوَّجتُ نفسي حاكمًا على عرشٍ من أوراقٍ وكلمات.

◆ ◆

هكذا يا سادتي يكون الغرورُ، وإلاَّ فلا!

أنا لا أميلُ إلى نصفِ رجلٍ مغرور، أو نصفِ رجلٍ كريم، أو نصفِ قاتلٍ، أو نصفِ أمير. فإذا ما احتوتكَ الصفةُ، فيَنْبغي أن تُعطيَها كلَّ ما لديك. إذْ ما جدوى نصفِ مجنون أو نصفِ عاقل؟ أَوَيُمْكنكَ التفاهُمُ مع نصفِ أديب أو نصفِ تاجر؟ هكذا أرى الأشياءَ والبشر: لا يُمْكن التعاملُ مع نصفِ نجّار، وإلاَّ سقط السريرُ بعد نصف الزمن الذي تنام خلفه. ولا يُمْكن إنجازُ قضيَّةٍ ما إذا ما مضيتَ إلى نصفِ محامٍ، لأنَّك سوف تَرْبحُ القضيةَ وتخسرُها في وقتٍ واحد.

لهذا، فأنا حين أقول «الغرور» عن نفسي أمامكم، إنَّما أبتسمُ سرّاً وأغازلُ نفسي ـ وأنتم تَفْهمون ذلك. فهذا الكلامُ الذي تَسْمعون لا يكتبه غيرُ إنسانٍ جمِّ التواضع، لا يريد من كومة الكلمات التي يَنْطق بها سوى أن يقول: لا شيء يستحقُّ كلَّ ما نحن فيه. فها هو الموتُ يَسْرق منّا أحلى مَنْ كان بيننا. وها هي الحروبُ تأخذ أجملَ أُمنياتنا. ولم يبقَ لنا غيرُ مِزَقٍ من أحلام نحاول أن نُرتِّقها بأصابعنا، لنكتشفَ أنَّ ما تبقَّى من قوَّة اليديْن لا يَكْفي أن تَحْتضنَ بهما جسدَ حبيبتك، وأنَّ ما خلَّفتْه لكَ الحروبُ البشعةُ ليس سوى وطنٍ مخرَّبٍ وطغاةٍ يَحْكمون على بقايا روحٍ تهاجرُ صوبَ المنفى أو أجسادٍ بريئةٍ تُذبح في السراديب.

---

* ـ روائيّ وقصّاص عراقيّ. يقيم منذ سنة في جدّة.

فمن أين يَجيءُ الغرور، إذن، وقد أكلتْكَ الحروبُ والتَهمكَ الوقتُ؟ الحروبُ ـ يا سيِّداتي وآنساتي وسادتي ـ علّمتْنا سبعةَ عشرَ درسًا، كلُّ درسٍ منها يفوقُ خيالاتِ طفولتِنا وصبانا. وأوّلُ تلك الدروس: أنّ الطمأنينة صارت محضَ سرابٍ. فقد اندرستْ تحت أنقاض المذاهب والمعتقدات التي آمنّا ـ سهوًا ـ أنّها صالحةٌ لمذاهبنا، فذهبنا بها ولم نعدْ أبدًا.

وثانيها: صار الطعامُ مجرّدَ كلمةٍ نَفْهم معناها، وفي الوقت نفسه نُخادع خلايانا لئلاّ يُتَبَرّأ منّا. فما نأكلُهُ يُشبهُ الطعامَ مادام يُشبعُ البطونَ، تمامًا كم تَشْبعُ الفئرانُ والكلابُ والقططُ السائبة.

وثالثُها: صار المفروض أن نَهْربَ من ساح القتل بعد أن شبِعنا من صفات البطولة والشجاعة، واعترفنا جميعُنا أنّ تلك المفردات لم تكنْ غيرَ فخٍّ كبيرٍ لاصطيادنا. فقد كنّا نتعامل مع الصفات وننسى عمليّاتِ الذبح الجماعيّ التي شَملتْ أولادَنا وإخوتَنا وأحبَّ أحبابنا.

أمّا رابعُ تلك الدروس فهو: أنّ الرحمةَ محضُ كلمة، وكذلك الشفقة، وأنّهما معًا دون معنى إزاء ما يفعلونه بنا من تشويهٍ للروح وتمزيقٍ للضمائر.

وهكذا الحالُ مع الدرس الخامس الذي جاء فيه: أنّ أولادَ المسؤولين الكبار لا شأنَ لهم بتلك الحروب، وأنّها لا تشمل غيرَ أبناء الفقراء. فعشراتُ الحروب مرّت بنا، بين حربٍ كبرى، وحربٍ لا يدري بها أحد، وحروبٍ داخليّةٍ صغيرةٍ ملغاةٍ من الذاكرة، وكلُّها تنتهي بنهاية «أولاد الخايبة،» بينما أولادُ المسؤولين يَسْرحونَ ويَمْرحونَ ليلَ نهار بين شواطئ فيلادلفيا وموانئ البحر الأبيض المتوسط وصالات الروليت في مونت كارلو.

الدرسُ السادسُ كان أقذرَ تلك الحقائق التي انغرزتْ في ضلوعنا. فهو درسٌ صارمٌ يقولُ بالحرف الواحد: إنّك ميتٌ مؤجّل حتى إذا تمكّنتَ من النجاة. فلقد كنّا نحصل على أوسمة البسالة والبطولة، ونطمئنُّ إلى حياةٍ رغيدةٍ سننعمُ بها دون شكّ، وإذا بها مجرّدُ لعبة نعود بعدها إلى أرض المعركة بانتظار موتٍ لاحقٍ أكيد. والثمن الذي أخذناه لم يكنْ غيرَ قطعةٍ من الخردة مكتوبٍ عليها اسمُ المعركة التي «انتصرنا» فيها.

كذلك الحالُ مع الدرس السابع الذي جاء فيه: مهما حاولتَ وكيفما فعلتَ من أجل النصر، فهو أمر لا يعنيك. ذلك أنّ الهزيمةَ، إنْ حلّت، هزيمتُك؛ وأمّا النصرُ، إنْ جاءَ عفوًا، فهو نصرُهم الكبيرُ وليس لك من دورٍ فيه. كنّا نتحطّمُ وراء السواتر وهم ينتصرون؛ نَذْبلُ ونبكي ونجوع، والسادةُ يضحكون.

أجل، علّمتْني تلك الحروبُ سبعةَ عشرَ درسًا، كلُّ واحدٍ منها أقلُّ رحمةً من الدرس الذي يليه. ومن أين للناس في كلّ شبرٍ من هذه الأرض أن يُصدّق الدرسَ الثامنَ، وهو أنّ مجموعَ مَنْ قُتلوا برصاص أهلِ البيت هم أضعافُ مَنْ ماتوا برصاص أعداءِ البيت؟

وعندما حلّ الدرسُ التاسعُ، أيقنتُ أنّ مفرداتِ الكبرياءِ والشهامةِ والكرامةِ لمْ تَكُنْ غيرَ ضوءٍ فقيرٍ على فاتورة الموت التي نَدْفعها خفيةً للاحتفاظ بتمثيل دور «النشامى» أمام العالم العربيّ المُسْلم، دون أن يكون لنا من الكبرياءِ غيرُ حروفِ الكي وليس لنا من الشهامة غيرُ «الأمّة.» وفي الوقتِ نفسِه لا كرامةَ لنا من تلك الصفة الكبرى غيرُ الكرّ الذي لا نَمْلك أمامه سوى الفرّ من أمام طغاتنا، لنَحْتمي بمن كان عدوّاً لنا!

ويوم هلّ الدرسُ العاشرُ شعرتُ بالضياع والهوان، حين سَمِعْنا ورأينا بأنفسنا ذاك الجيشَ العرمرمَ من النساء وهو يَقْطعُ مئاتِ السنين من الشَّرفِ الرفيع ليَسْقطَ ـ دون مواربةٍ وبلا تهديد ـ تحت أجسادٍ بلهاءَ عفنةٍ لا تَمْلكُ من الدنيا غيرَ أموالِها وبلاهتِها وإحساسِها بالانتصار العظيم إذا ما رمت حيامنها في ثقوبٍ مستباحةٍ محطّمةٍ أصابها الجوعُ والظلمُ والعبوديّةُ والرعب. وانتهى ذاك الجيشُ إلى ماخور كبير دون أن تُراقَ قطرةُ دمٍ واحدة.

جميلٌ هو الطغيانُ بالنسبة إلى الأغبياء والتجّار والسَّفلة؛ فهو «يَمْنح» ما لا يُمْنح في أيامِ السِّلْم وفي أيامِ الحقيقة. وها هو الدرسُ الحادي عشر من دروس الحرب، وجاء فيه ـ معذرةً ـ كيف يَقْتل الأبُ ابنَهُ من أجل الحصول على سيارةِ مارسيدس بحجّةِ أنّ الولدَ المقتولَ رفض أن يشاركَ في حروبِ الشرفِ العظيمة! أي واللّهِ، رأينا القاتلَ على شاشة التلفزيون. وما كنّا نصدِّقُ أنفسَنا، كيف تجرّأَ هذا السافلُ أن يَذْبَحَ ابنَه من أجل حربٍ مزوَّرةٍ نَعْرف جميعُنا مَنْ أَمَرَ بها ونَعْرفُ مَنْ راح يُنفِّذُها.

عسيرٌ على الروح أن تهدأ.. ولاسيّما أنّ الدرسَ التالي يُخبرُنا كيف راحت إحداهنّ إلى مديريّة الأمن تُخْبرُ «القَتَلة» أنّها تشكّ في حالات زوجها الذي يأتي إليه جمعٌ من الأصدقاء «أكثرَ ممّا يجب.» وبرغم أنّها أنجبتْ منه خمسَ بناتٍ وطفلاً واحدًا، فإنّها ابتسمتْ يومَ جرجروه من البيت، وابتسمتْ ثانيةً يوم عادَ إليها محضَ جثةٍ برأسٍ مثقوبٍ بخمس رصاصات.

وفي الدرس الثالث عشر، لم نَعُدْ نَمْلك حريّتنا في أيِّ شيء، وأظنُّنا عُدْنا إلى عصر العبيد. بل ربّما كان عبيدُ ذاكَ الزمان أفضلَ حالاً منّا، مادام كلُّ واحدٍ منهم محكومًا بفترة محصورة من الزمن يتحرَّر بعدَها، وأمّا نحن فلا نَدْري كم سيطولُ الوقتُ حتى نتحرَّرَ من أغلالنا ومن عبوديّتنا التي طالت أكثرَ ممّا يَحْتمل العقلُ والقلبُ معًا.

لم نَعُد نفكّر بما نَشْتهي وبما نريد، صرنا نَرْضخ لكلّ ما يَشْتهون وما يَطْلبون. وفي الدرس الرابعَ عشر صرنا نتشهّى ما يفكّرون به، مع أنّ ذلك يعني نهايةَ عقولنا وفناءَ حواسّنا جميعِها. أرغمونا أن نُصْبحَ حيواناتهم الوديعةَ المسالمةَ المرعوبة، وصار كبارُ البلهاء منهم يَفْهم كيف يستبيح أفكارَنا ويَسْخرُ من عقولنا. إنّهم مدرَّبون ـ برغم بلاهتِهم ورعونتِهم ـ على تحطيم الإحساس فينا؛ فثمّة مَنْ يُخْبرهم بما يجبُ أن يخطّطوه، وعمّا يَنْبغي أن يرسموه، لئلاّ تتشظّى إمبراطوريّتُهم الكبرى.

في الدرسِ التالي انتهى التعاملُ نهائيّاً بالشرف الرفيع الذي لا يَسْلم من الأذى حتى يُراقَ على جوانبِه الدمُ. فقد أرغمونا ـ بفعلِ السلاح والتماسيح والكلاب المسعورة ـ على أن نرى ذبحَ أُخيّاتنا وأُمَّهاتنا وزوجاتنا بحجّة الزِّنى والدعارة، ويقتلوهنّ بالسيف أمامَ عشائرنا وضمائرنا، وكلُّنا يَعْرفُ حقيقةَ ما يجري أمامنا. وبرغم ذلك تستمرُّ أعراسُهم اليوميّة، المزدانةُ بالمطربين والخمرةِ والهلوسةِ والدعارةِ. ولم نَعُدْ نملكُ غيرَ الحقدِ والرغبةِ في الانتقام.

كثرتْ عندنا ـ أكرِّرُ ذلك مرتَيْن ـ صفاتُ الكبرياء في التلفزيون. كما ازدادت مفرداتُ الكرامة في الراديو. ناهيك عن كلمات الشجاعة والبطولة في المجلات والصحف اليوميّة، مع أنَّ المواطن في كلِّ شبرٍ صار يَعْرف أنَّ تلك الصفاتِ كانت قد اندثرتْ تمامًا منذ أولِ قتيلٍ ذبحوه بلا سبب. هذا الدرسُ سَبَقَ الدرس السابعَ عشر الذي تعلّمنا فيه: أنَّ ما فات من قتلٍ ومسالخَ وموتٍ وذبحٍ ومجازرَ وسفكِ دماءٍ بالجملة وهتكِ أعراضٍ بالجملة، وما سيجري غدًا، إنَّما هو مرسومٌ مسبّقًا لتحطيم حضارةٍ وتمزيق بلاد. فقد جاءتهم التعليماتُ أَنْ تُصبحَ هذه البلادُ محضَ أرضٍ بلا عقول، ومجرَّدَ خارطةٍ دون دليل...

أمَّا كارثةُ الكوارث ومحنةُ المحن ومجزرةُ المجازر، فهو أن نوحيَ بالنصر: «النصر» على أشلاءِ شعبٍ قَتَلوا منه المليونَ الأولَ في حربِ السنوات الثماني، وشَطَبوا المليونَ الثاني في الكويت، والمليونَ الثالثَ في المعتقلات، والمليونَ الرابعَ تحت الأمراض، والمليونَ الخامسَ كمدًا وحسرة، والمليونَ السادسَ والسابعَ والثامنَ في الشتات، والمليونَ التاسعَ في التشويه بين أحشاءِ الأمَّهات قبل أن يُولَدوا. أمَّا مصيرُ البقيّةِ من البشر، فهو معروفٌ منذ الآن، إذا لم يستيقظِ العالمُ دُفعةً واحدةً لإنقاذِ الإنسانيّة في بلدٍ محكومٍ بالذلِّ والإذلالِ يسمُّونه «العراق» منذ سبعةِ آلافِ سنة!

أيُّها الأحبَّةُ، أيُّها الأصدقاء.

أنا أعتذر حقّاً عن هذه الأكاذيب التي رميتُها أمامَكم في هذا المساء. غروري يساعدني على رسم أباطيلَ مزوَّرةٍ لا يُمْكن أن تَحْدثَ في أيّما بلدٍ في العالم، إذ ليس من المعقول أن ترى حاكمًا يحطِّمُ البلادَ التي يَحْكمها.

كلُّ ما قلتُهُ لكم من دروسٍ محضُ حسدٍ وغيرةٍ جاءا من رجلٍ مثلي لا يَمْلك أيَّ شيء تجاه رجلٍ يَمْلك كلَّ شيء. وبرغم ذلك، ليس من العيب أن تحاولوا التأكُّدَ ممّا قلتُه لكم. ذلك أنَّ الحياةَ صارت مجرَّدَ لعبةٍ بين ظالمٍ ومظلوم، لعبةٍ عسيرةٍ جدّاً بين حاكمٍ ومحكوم، وربَّما هي لعبةُ أطفالٍ بين قاتلٍ وقتيل. ومن ثمَّ لا بدّ أنَّها ليست أكثرَ من غزلٍ بريءٍ بين الثعلب والدجاج، أو منافسةٍ طيِّبةٍ بين النمر والغزال. وما يهمُّني الآن، يا سادتي، هو أن نتركَ الكلامَ والنقاشَ والشكَّ، ونمضيَ إلى منزلِ الحقيقة، لنرى بأنفسنا ما صارت حالُ البلاد التي كان أبناؤها لا يفكِّرون بما سيأتي غدًا من جفاف، ثم صار كلُّ واحدٍ منهم محضَ عبدٍ ذليلٍ لكلِّ ما جاءَ عليه!

بسرعةٍ لا تُصدَّق انتقلنا من الرفاهِ والنعمةِ إلى الجوع، ومن الصحةِ إلى الأمراض، ومن الطمأنينةِ إلى الخرابِ والخوف. كان العالمُ كلُّه يحترمُ العراقيَّ أينما حطَّ رحالَه، فصار العراقيُّ اليوم مأكولاً مذمومًا، مغلَقَةٌ أمامَهُ بوّاباتُ الدنيا وحدودُها. بسرعةٍ لا تصدَّق خسِرنا كلَّ شيء، خسرنا كلَّ شيء.

ليت أُمي، يومَ أوشكتْ أن تموتَ عند ولادتي وأنا في اليوم الرابع بعد الشهر التاسع أَمْرحُ بين أحشائها وأَسْرحُ في ظلمتِها الطيِّبةِ الحنون، ليتها ذَبَحَتْني بيدَيْها. ليتها ذبحتني فعلاً، كي لا أرى العراقَ ـ وطني ـ يُذبَحُ هكذا كلَّ يوم وبلا شفيع.

إنَّني آسفٌ على ولادتي.

جدّة